

الحرب والجامعات في بريطانيا

غيّرت هذه الحرب المنتهية كثيراً من القيم والأوضاع في حياة الغرب . وليس أثرها في الحياة العقلية والفكرية هناك أقل ظهوراً من أثرها في الحياة العملية ، وفي معالم الحضارة المادية . والذي يدرس تطور المدنية في أوروبا الحديثة لا يملك إلا أن يلمس ارتباط الحياة العامة وتنظيم المجتمع بالحياة العقلية واتجاهات الفكر والثقافة ؛ ذلك أن الناس هناك ، لاسيما في بلد كبريطانيا العظمى ، يملكون من أقدارهم ما يؤهلهم لأن يفكروا — أو يفكر لهم فريق منهم على الأقل — في مستقبل حياتهم وفي الأسس المادية والقواعد العملية التي ينبغي أن يقوم عليها تنظيم مجتمعهم ، بعد أن هزته هذه الحرب هزتها العنيفة ، فكشفت عن نواح كثيرة من القوة ينبغي أن تدعم ، وعن نواح غير قليلة من الضعف ينبغي أن تعالج ، ونواح قليلة أو كثيرة من النقص ينبغي أن تستكمل .

ولعل من أظهر ما يمتاز به المجتمع في الغرب ، وفي بريطانيا التي نحن بصددناها الآن ، حيويته وحساسيته . فهو يشعر — أو يشعر مفكروه على الأقل — بالحاجة إلى الإصلاح ، متى لاحت بوادر تلك الحاجة في الأفق البعيد ؛ وهو يبدأ سعيه إلى الإصلاح قبل أن تلح الحاجة إليه ، وقبل أن يصبح ضرورة لا مفر منها . وقد لا نخرج كثيراً عن الحق إذا نحن قسنا حيوية الشعوب والأمم في الجيل الذي نحن مقبلون عليه بمقدار حساسية كل منها في الشعور بالحاجة إلى الإصلاح ، والسعى إليه سعيًا موجهاً يقوم على أساس من التفكير ورسم الخطط ، بدلا من الإصلاح المرتجل الذي لا يسبقه فكر ، ولا ينتزع بالناس إلى اقتناع .

وكثيراً ما جنبت مثل هذه الحساسية المجتمع البريطاني في تاريخه الحديث والمعاصر أخطار الانقلابات الخاطفة وويلات الثورات العنيفة . فكان قادة

الفكر فيه يستثمرون الحاجة إلى التحول ، فيغيرون من أفكارهم ويحولون من اتجاهاتهم ، في ضوء الخبرة والتجربة ، سواء منها ما يقع في بلادهم وتحت حسهم ، وما يقع في غير بلادهم ، ولكن في ظروف قد يتحقق ما يشبهها من قريب أو بعيد في بلادهم إن تركت الأمور دون توجيه . والغريب — أو لعله ليس غريباً — أن بريطانيا حاولت جهد طاقتها أن تتعلم من هذه الحرب المنتهية أكثر مما تعلم غيرها ، وأن تفيد من هذه التجارب الخطرة التي مرت بها ، أو مر بها غيرها من الأمم ، إضافة قد لا تبدو آثارها عاجلة ، لأنها لا تسلك سبيل الثورة ، ولكن الزمن كفيل بأن يتكشف عنها في جلاء ، لأنها تتناول نظم المجتمع في الصميم .

والذي يعنينا الآن من حركة التطور هذه أن نحاول أن نتبين مكان الجامعات من التحول الجديد ، ومبلغ مساهمتها في إرهاف حساسية المجتمع لظروف البيئة والزمن وأطوارها المتجددة ؛ بل مكانها من توجيه الفكر والحياة العقلية والثقافية قبل أن تستقر على اتجاه معين ، ثم ربط الحياة العملية العامة بالحياة العلمية والفكرية للجيل الجديد .

وليس يعنينا في هذا المقام كثيراً أن بعدد ما ساهمت به جامعات بريطانيا في الحرب — إذ الحرب هناك كانت كاملة شاملة ، ساهمت فيها الجامعات كما ساهم غيرها من مؤسسات الأمة ومصالح الدولة ؛ فاشترك كثير من رجال الجامعات وشبابها في الحرب والقتال اشتراكاً فعلياً ؛ وهبط عدد الطلاب المنقطعين للعلم والراحة هبوطاً محسوساً ، فأصبح مقصوراً على من لم يبلغوا سن التجنيد من الطلاب والطالبات ، أو على المتفوقين تفوقاً خارقاً ، والذين يدرسون دراسات خاصة ، تجعل من الخير للأمة استمرارهم فيها ، لعلهم يساهمون يوماً ما في تقدم العلم والمعرفة تقدماً يذكي من إنتاج الأمة وقدرتها على الحرب والكفاح ؛ أو على فئة قليلة من غير الصالحين للجندي والخدمة العسكرية في أشكالها المختلفة ؛ ثم على نقر متناقص العدد من الأجانب وأبناء الأمم المحايدة وغير المحاربة ممن يدرسون في بريطانيا . كذلك ساهم علماء الجامعات والقائمون بالابحاث فيها مساهمة فعالة في جهود بريطانيا ، في الإنتاج الحربي ؛ فتوثقت الصلة بين معامل البحث ودور الصناعة ؛ وضاعف الباحثون والمخترعون جهودهم لتسخير العلم في خدمة أداة الحرب في صور وأشكال تعدو الحصر . ولولا ذلك

ما استطاعت بريطانيا مواصلة الحرب في الدفاع أولاً ، ثم في الهجوم خلال سنوات الحرب الطويلة ، وعلى تلك الصورة التي انتهت بها وبخلفائها إلى النصر . كذلك توثقت الصلة بين معامل البحث وحقول الزراعة ؛ فأصبحت بريطانيا بعد انقضاء خمس سنوات على الحرب تفتتح ثلثي ما تحتاج إليه من الأغذية ، بعد أن كانت قبل الحرب لا تنتج غير الثلث . وفي هذا تقدم لا يكاد يصدق ، خصوصاً إذا راعينا أن بريطانيا منذ ثورتها الصناعية لم تكن بلداً زراعياً بالمعنى المعروف ، وأن التقدم في الإنتاج الزراعي بطيء بطبيعته ، ومع ذلك فقد استطاع العلماء البريطانيون أن يقودوا الزراع وأن يرشدوهم في مسائل الاستنبات وانتقاء البذور وتنويع المحاصيل وإصلاح الأراضي وتجديد الآلات ومكافحة الآفات وغير ذلك مما كان له أثره الرائع في إنقاذ البلاد من غائلة الجوع ، بعد أن كادت حرب الغواصات أن تحول بين أهلها وبين أن يطمعوا من الخارج شيئاً .

قد ساهمت الجامعات البريطانية والعلماء البريطانيون إذن مساهمة فعالة في جهود بريطانيا العسكرية والحربية العامة ؛ وكان لتلك المساهمة الحيوية أكبر الأثر في كسب الحرب . ولكن المهم أن الحرب لم تشغل الجامعات ورجالها عن التفكير في السلم ؛ أو على الأقل فيما بعد الحرب من سنين قد تكون سلاماً ، وقد تكون انتقالاً إلى حرب من جديد . وإنما اتهم رجال الجامعات فرصة الحرب ليدرسوا ما كشفت عنه من أوجه العيب أو النقص في مجتمع ترى الجامعات بحق أن عليها جانباً كبيراً من قيادته ورسم خطته للمستقبل ، في عصر كاد العلم أن يتزعم فيه كل مرفق من مرافق الحياة ؛ فأصبح التفكير والتبصير ورسم الخطط والتوجيه لزاماً على من أراد أن يعيش من الشعوب ؛ وأصبح واجباً على الجامعات إن هي أرادت أن تؤدي رسالتها للمجتمع في السلم كما أدتها في الحرب أن تتخذ عدتها وأن تعيد سياستها وتجدد من أدواتها الخاصة ومن طرائقها في البحث والتعليم والتربية وإعداد قادة الأمة في المستقبل .

لذلك أخذ الجامعيون البريطانيون يفكرون في المستقبل رغم ما أخذتهم به الحرب من شدة وقسوة . وكان تفكيرهم في المستقبل جدياً وشاملاً في الوقت ذاته ؛ ففتح المجال أمام التفكير الحر في شئون الجامعة ووظيفتها في المجتمع ، وكثر النقد واتسعت دائرته حتى شملت الجامعة بمعناها الأوسع ، فشارك فيه رجالها وأبنائها وخريجوها في مختلف مناحي الحياة ، بل شارك فيه رجال الأعمال

الحرب الجامعات في بريطانيا

والحياة العملية في السياسة والصناعة والتجارة وما إليها . ومع أن الحكومة شاءت أن تحفظ للجامعة قداستها وحريتها فلم تشترك في اللجان العديدة التي تألفت لهذا الغرض ، ولم تحاول التدخل في شئون التعليم الجامعي وتنظيمه ، فقد كان مفهوماً أن الحكومة تشجع الفكر الحر فيما يتصل بإصلاح شئون الجامعات ؛ كما أن السلطة التشريعية ، وإحدى لجان مجلس العموم بنوع خاص ، أثارت غير قليل من النقاش حول هذا الموضوع . بل إن الغريب أن الجامعات في بريطانيا كانت أسبق مؤسسات الأمة إلى أن تتعلم درساً جديداً من هذه الحرب ؛ فدعت الأساتذة الأجانب الذين لجأوا إليها من بلاد أوروبا قبيل الحرب وخلالها ، وكانت كثيرتهم من قادة الفكر الحر في القارة الأوروبية ، إلى المساهمة في المناقشات الدائرة حول رسالة الجامعة في المجتمع والجيل البريطاني الجديد . وأخذت الجامعات بكثير من آراء هؤلاء الأساتذة الأجانب في رسم خططها للمستقبل . وقد تزعمت الجامعات البريطانية الأمة في هذا الصدد بالتحرر من بعض قيود الماضي ، والخروج على العزلة المعروفة عن الخلق البريطاني .

وترتب على هذا كله أن خرجت الجامعات البريطانية من الحرب ببرنامج جديد يسير الزمن ، بل يسبق الحاضر إلى ما ينبغي أن يقوم عليه المستقبل . وهذا البرنامج الجديد قد رسمت منه خطوطه الأساسية ومعاله الكبرى ، كما رسمت منه بعض تفصيلاته ؛ ولكنه مع ذلك برنامج مرن قابل للتطور والتغير ، شأن كل برنامج يقوم على أساس من الفكر الحر والتفكير السليم . وهو فوق ذلك برنامج غير رسمي ، وضعه رجال العلم لتهتدي به جامعاتهم دون أن تلتزم باتباع حرفيته ، أو بالتقيد في حدوده ؛ وذلك أيضاً شأن كل برنامج جامعي صحيح ، يحفظ للجامعة روحها وتقاليدها وتراثها في أن تحيا حرة طليقة ، وفي أن تحفظ لكل جيل وكل زمان حقه في أن يفكر بنفسه لنفسه .

ورسالة الجامعة كما يحددها الجامعيون تشمل مسائل أربع ؛ عرض لها البرنامج الجديد ، أو هو بعبارة أصبح قد أعاد استعراضها فحدها في ضوء ما استجد من ظروف ، وما يجب أن تضطلع به الجامعة من مهام ومسؤوليات . فالجامعة ينبغي أولاً وقبل كل شيء أن تحتفظ بمكانتها كمركز للثقافة القومية العليا ، تلتقي فيه الأفكار فيبحثك بعضها ببعض وتتفاعل في ظروف مستمدة من الحياة البريطانية ذاتها ، حتى تتخذ في النهاية طابعاً يميز الفكر البريطاني عن غيره

والثقافة البريطانية عن غيرها ؛ إذ أن الجامعة إذا لم ترتبط بالبيئة المحيطة بها لم يعد لها وجود مميز ، وإذا لم ترتبط بحياة المجتمع وتحس حاجاته العقلية والثقافية لم تستطع أن تستجيب لتلك الحاجات استجابة تعين المجتمع على أن يؤمن بقيمتها ، فيستجيب هو من ناحيته ويتأثر بما تغذيه الجامعة من نتاج العقل وثمار الفكر ويحرص الجامعيون الآن في بريطانيا حرصاً شديداً على أن يؤكدوا للناس من جديد أن الجامعة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد « معهد عال » يمثل « المرحلة العليا » من نظام التعليم العام ؛ فهي أكبر من ذلك ، وأعم من ذلك وأعمق من ذلك ؛ إذ هي تتصل بحياة الشعب وثقافته كلها داخل نطاق التعليم وخارجه . وقد اعترفت الدولة لها بذلك ؛ فعند ما وضعت وزارة المعارف البريطانية مشروع قانون التعليم الجديد وأقره البرلمان هناك لم يتعرض ذلك القانون بكثير أو قليل للجامعة والتعليم الجامعي .

والجامعة إلى جانب ذلك تعنى بناحية ثانية ؛ فهي القوامة على الأبحاث والدراسات التي تساهم بها الأمة في تقدم العلم وازدياد المعرفة الإنسانية . وهذه الأبحاث ينبغي أن تشمل نواحي المعرفة جميعاً ، سواء في ذلك علوم العقل والثقافة الخالصة ، وعلوم المادة واستغلالها العملي في قضاء مصالح المدنية . وبدون هذه الأبحاث لا يكتمل للجامعة كيانها ولا تعتبر جامعة بالمعنى الكامل الصحيح . بل إن من رأى القائمين على شئون الجامعات في بريطانيا الآن أن من الواجب أن تهيأ الظروف بعد الحرب لينفق رجل الجامعة نصف وقته على الأقل في إجراء الأبحاث العلمية الخالصة ؛ كما أن من رأيهم أن ترفع الدولة إعاناتها للجامعات إلى خمسة أمثال ما كانت تدفعه قبل الحرب ؛ وذلك حتى تيسر ظروف البحث ووسائله من إقامة المعامل ودور التجارب وحقوقها وغير ذلك ؛ وإن كان من رأيهم في الوقت نفسه أن تحتفظ الجامعات باستقلالها التقليدي في البحث ، فلا تكون مسخرة من الدولة لإجراء أبحاث معينة بالذات أو تقديم بحث على بحث كما كانت الحال أثناء الحرب ، وإنما يجب أن تتحرر الجامعة من كل قيد ، وألا يسيطر على رجالها أي مسيطر خارجي فيما يزعون إليه من أبحاث بصرف النظر عن قيمتها بالنسبة للأمة أو الدولة . وحجتهم في ذلك قوية ظاهرة ؛ فالجامعة في كل دولة من الدول إن حصرت أبحاثها فيما تكلفها به الدولة لقاء ما تدفعه من إعانة جرت على أبحاثها رقابة قومية ضيقة تقضي على ما يجب أن

يتوافر للعلم والبحث من حرية ، وضرب على نتائج تلك الأبحاث أو جانب منها نطاق من السرية التي تقتضيها الأمانة القومية ، ولا بد أن يؤدي ذلك إلى تضيق نطاق التبادل الفكري والعلمي بين الأمم ، مما ينتهي حتماً إلى تأخر العلم والبحث العلمي في تلك البلاد جميعاً ؛ وفي هذا ما يقتل روح العلم ويطفى نوره ويرجع بالإلسانية إلى وراء . . . وسرى في السنوات القابلة ما ينتهي إليه الصراع بين الروح العلمي الجامعي من جهة والنزعات القومية الظاهرة والخفية من جهة أخرى .

وأما الناحية الثالثة التي تعنى بها الجامعة في أداء رسالتها فإن تكون أداة للإذاعة المعارف ونشرها عن طريق التعليم . ومع أن هذه كثيراً ما تكون الناحية الظاهرة من نشاط الجامعة ، فإن فريقاً من الجامعيين المستمسكين بجامعتهم يضعونها في المرتبة الثالثة بين أغراض الجامعة ؛ وإن كانت كثرتهم لا تستطيع أن تتصور وجود الجامعة إذا لم يقرن فيها البحث العلمي وتقدم المعرفة بالتعليم ونشر تلك المعرفة ، لا سيما بين شباب الأمة ؛ فكلا الفرضين مرتبطان بالآخر ومتداخل فيه . والجامعة لا تكون جامعة إلا إذا كانت مقرراً للثقافة القومية العليا ، ومركزاً للبحث العلمي الخالص ، وداراً للعلم والتعليم وتخرج العلماء الناشئين والمواطنين الصالحين في مختلف مناحي الحياة . وقد تنبّهت الجامعات إلى ذلك منذ القرن الماضي ، فقال أحد الجامعيين إذ ذاك مامعناه : « إن الجامعة إذا لم تقرن التعليم بالبحث كانت كالعين الحماة أو البركة الراكدة ، يعب الطلاب من سطحها الماء الآسن مختلطاً بخيوط الطحالب والريم ؛ فإذا ما جمعت بينهما غدت كالنوع الفائض ، أو المورد الجاري ، ينهل منه الطلاب ماء قراحاً يروى ظمأهم ، ويجلو نفوسهم ، ويفيض إلى غيرهم من الظامئين » .

وإذا نحن تتبعنا تاريخ الجامعات البريطانية من الناحية التعليمية وجدنا أنها كانت تعنى في القرن الماضي أكثر ما تعنى بتخريج قادة الأمة وحكام الإمبراطورية . فكان يؤمها في الغالب أبناء طبقة معينة تعد نفسها للحكم والإدارة في بريطانيا وما وراء البحار ، وتمتاز التعليم الجامعي وسبلة صالحة بل أداة ضرورية في إعداد الفرد من هذه الناحية . ثم تحولت الجامعات عن ذلك خلال الجيل الأخير إلى ما أصبح يعرف « بالتعليم الجامعي المهني » الذي يمد الطلاب لمهن معينة ؛ وأصبحت كثرة هؤلاء الطلاب ممن يقصدون إليها لينالوا قسطاً معيناً من

التعليم الفنى الخاص المتصل بإحدى المهن ، كالمهندسين والأطباء ورجال القانون ونقر من المعلمين وغيرهم . ومع أن هذا النوع من التعليم زاد من ارتباط الجامعة بالحياة العملية العامة ، فإن رجال الجامعة أخذوا يحسون فى الفترة الأخيرة أنه أدى إلى نوع متطرف من « التخصص » فى التعليم ؛ فالصرفت جهود الجامعة إلى مخرج المحترفين الذين يجيدون المهن المختلفة ، ولكنهم لا يبالون القسر الكافى من الثقافة الجامعية العامة . فالطبيب الجامعى مثلاً قد يكون طبيباً ماهراً ، ولكن انصرافه الشديد لائقان تعلم مهنته أثناء وجوده فى الجامعة ومستشفياتها يصرفه عن الإفادة من وجوده فى الجامعة لتوسيع ثقافته العامة ، واستكمال أسباب تكوينه ك مواطن . يجب أن يتفهم المجتمع الذى يعيش فيه ، وأن يدرك قيمة مهنته فى الحياة العامة . وكذلك الحال فى المهندس وغيره ممن يتخرجون فى الجامعة . وحتى فئة المدرسين قد تبين الآن أن الجامعات فى بريطانيا لا تخرج منهم إلا ربع من تخرجهم دور المعلمين التى لا تتصل بالجامعات ؛ وذلك يعتبر نقصاً تسعى الجامعات إلى تلافيه ؛ إذ أن من يريد أن يحترف مهنة التعليم هو أولى من غيره بالحياة فى الوسط الجامعى ، والإفادة منه فى تكوينه الثقافى العام إلى جانب إعداد مهنته الخاصة . كذلك ترى الجامعات أن يتسع نطاق عملها فى التعليم المهنى ، بحيث يشمل جميع من يعدون أنفسهم للمهن العامة فى المجتمع ، لا سيما ذات الصفة الاجتماعية ، كمن إدارة الأعمال فى الشركات والمصانع ، ووظائف الإدارة الإقليمية والبلدية وغير ذلك .

وأما الناحية الرابعة والأخيرة التى تتم رسالة الجامعة فى الجيسل الجديد فمرتبطه بالناحية الثالثة ؛ ولكنها تتناول جانباً خاصاً من التربية والتهديب يستحق عناية خاصة ، وهو جانب التربية الخلقية ، التى لا يقصد بها هنا ترويض الطالب الجامعى على الخلق الكريم والأخلاق الفاضلة ؛ إذ ليس من وظيفة الجامعة نهذيب النفوس بعد أن يصيبها السقم ، وتقويم الخلق بعد أن يعوج ؛ ولن تستطيع الجامعة أن تحل محل البيت والمدرسة ، ولا أن تصلح ما أفسده إلا بقدر محدود وفى حدود ضيقة . وليس يجدى كثيراً فى دور الشباب أن تنقلب الجامعة إلى دار للتأديب والتهديب أو للوعظ والإرشاد ؛ بل إن ضرر ذلك قد يكون أكثر من نفعه . وليس من الإنصاف أن تكلف الجامعة مالا تطبيق وما لم تنشأ من أجله . لذلك يرى الجامعيون أن يقتصر التهديب الخلقى فى

الجامعة على ما تستطيع ان تتقن ؛ فتعين الطالب على تربية شخصيته في دور الشباب ، وتحول نشاطه الفاضل إلى ما ينمى فيه روح الجماعة ويموده تحمل المسؤولية وقبول التضحية كموطن يعيش للمجتمع كما يعيش لنفسه . ويذهب بعض الجامعيين في بريطانيا إلى أن يقترح فرض الخدمة العسكرية الإلزامية على الطلاب خلال عام قبل تقدمهم للدراسة الجامعية مباشرة ؛ فهي خير ما يعود الطالب الطاعة ، ويجبسه على حب العمل في الجماعة ومن أجلها ؛ وإن كانت كثرة رجال الجامعة ترى أن من الممكن تربية الشخصية وإنماء روح الجماعة في الطالب إذا توسعت الجامعات في تكوين جميعات الطلبة من رياضية واجتماعية وعلمية وأدبية ؛ فهي التي تمكن الطلاب من أن يفيدوا إلى أبعد حد مما يعرف بالحياة الجامعية في أوسع معانيها . ولا شك أن إعداد الطالب من هذه النواحي المتصلة بالشخصية وتحمل المسؤولية وإدراك الحق والواجب في وضعهما الصحيح ، كل ذلك مما يعين الطالب بعد تخرجه على أن يصبح مواطناً صالحاً مهما كانت مهنته في المجتمع عالماً أو طبيباً أو مهندساً أو معلماً أو غير ذلك .

* * *

تلك أمهات المسائل التي فكر الجامعيون البريطانيون فيها أثناء الحرب . وهي مسائل تتناول رسالة الجامعة من أساسها ، وترسم الخطة لتحول خطير في الفكر والحياة العقلية ، وفي علاقة العلم والتعليم بالحياة العملية والشئون العامة . وقد يبدو غريباً أول الأمر كيف يشغل القوم أنفسهم بمثل هذا البحث في حين كان المنتظر أن تشغلهم الحرب وأن تلهيهم عن كل شيء ، وفي حين يسدو التعليم الجامعي والثقافة الجامعية في أيام الحرب لونا من ألوان الترف العقلي دونه أمور كثيرة أشد خطراً في حياة أمة محاربة . ولكن العصر الحديث لم يعد يحتمل أن تشغلنا فيه مشاكل اليوم مهما اشتدت عن التفكير في الغد وشمونه . والجامعة إن أرادت أن تقود الأمة في الفكر والثقافة يجب أن تكون أول من يستشعر تغير الزمن ، وأول من يستعد للمستقبل ؛ وهي في المجتمعات الصالحة للبقاء قد حاولت أن تفعل ذلك .

وبعد ، فقد يكون فيما ذكرت ما يشير الفكر فيما نحن بسبيله في مصر . فليس من شك في أننا ساهمنا في الحرب ، وفي أن مجتمعا المصري سيتأثر بها في مستقبله

الحرب والجامعات في بريطانيا

القريب إلى حد لا يقل عن تأثر غيره بها من الشعوب . . . وليس من شك أيضاً في أن لنا جامعة أو جامعات قد تصدت ، أو كان يجب أن تتصدى . لإمامة الفكر والنهضة العلمية والثقافية ، بل النهضة العامة ، في بلادنا وفي جانب من بلاد الشرق . . . فهل أيقظت الحرب فينا ، أو هل يبعث انتفاضها وإقبال السلم ، بعض هذا الوعي ، ولو في فئة من ييديم شئون الجامعات في مصر ؟

سليمان مزي